الدلالة الإيحائية
في شعر ابن جابر الأندلسي (ت٧٨٠هـ)

دكتور/ ناصر سليم محمد علي الحميدي
أستاذ اللغة العربية المساعد- الكلية الجامعية بأملج
جامعة تبوك

ملخص:

يروم هذا البحث بيان استخدام الرمز الإيحائي في شعر ابن جابر الأندلسي على مستوى ذات الشاعر، ومستوى مجتمعه، والمستوى الإنساني وفضاءاته، ومدى حضورها في نصه الشعري؛ لأنَّ الشعر خاصة والأدب بصفة عامَّة هو نتاج إبداعي مبعثه الذات، ومداره المجتمع، ومداه الإنسانية.

مما يُجلي مدى حضور الإيحائية في شعر ابن جابر في مختلف مستوياتها، بوصفها أداة جمالية تكنز طاقات هائلة في رصيد تجربة الشاعر، وتغري المتلقي في اكتشاف الحقائق والمعاني، التي لا يُمكن للتعبير المباشر إرسالها له، بما يمكن أن يشار إليه بالإيحائية أو رمزية التعبير، التي توحي عن رؤية الشاعر في نصه الشعري، عبر وسائل الرمز والإيحاء في التعبير والصياغة.

الكلمات المفتاحية: الدلالية الإيحائية، الرمزية، النص الشعري.

١) الأندلسي: ابن جابر، شعر ابن جابر الأندلسي، ت: د. أحمد فوزي الهيب، دار سعد الدين، دمشق، ط١ ،١٠٠٧م.

Suggestive Signification
In the poetry of Ibn Jaber Al-Andalusi (٧٨٠ AH)

Abstract

This research aims to demonstrate the use of the suggestive character in Ibn Jabir Al-Andalus's poetry at the level of the poet, his society, the human and its spaces, and the extent of its presence in his poetic text, because poetry in particular and literature in general is a creative product that is self-motivated, the poetry subject is the society and its extent is the humanity

This shows the extent of the presence of the suggestion in Ibn Jabir's poetry at its various levels, as an aesthetic instrument that hoards enormous energies in the balance of the poet's experience, and temptation of the audience to discover the facts and meanings, which direct expression cannot understand him, in what may be referred to as the suggestive or symbolism of expression, which It suggests about view of the poet in his poetic text, through means of symbol and suggestion in expression and formulation.

Keywords: suggestive, symbolic, poetic text.

مدخل:

تُعدُّ قضية الغموض في الشّعر والوضوح إحدى أهم القضايا النقدية القديمة، والتي انقسم النقاد إزاءها إلى قسمين، أنصار الوضوح ويمثّلهم البحتري، وأنصار الغموض ويتزعّمهم أبو تمام، وهي قضية تبقى نسبية؛ لأنَّ تفاعل المتلقي هو الحكم في الإبداع الشّعري، فالوضوح غير الابتذال، والغموض الشفيف اللذيذ غير الإبهام والاستغلاق. وتمنح الدّلالة الرّمزية والإيحائية الأديب مساحة إبداعية، تجعله يتجاوز التّصريح والمباشرة إلى آفاقٍ من الدّلالات الواسعة، والرّؤيا العميقة، تثري تجربة الأديب، وتكسب نصه تجدداً، وانفتاحًا لا يحدُّ من التأويل. والنّص الشّعري خطاب إبداعي جمالي، يتجاوز المباشرة إلى أُفق من الرّمز والإيحاء والإمتاع الغير متناهي، بسبب تنوّع الفهم، وتعدّد شكل المتلقين له، فالشّاعر يُقدم في نصّه الشّعري رؤى لغوية خاصّة لها قدرة، وتفرد على إدراك الحال بعلائق متنوعة، يروم من ذلك الوصول إلى كُنه الأشياء وعلاقاتها المخفية الجديدة، بشكل مُغاير غير متوقع، وهو بهذا، يصنع واقعًا مغايرًا جديداً " ويعني الرمز الدّلالة على ما وراء المعنى الظاهر مع اعتبار الظاهر مقصودًا"(١).

ابن جابر الأندلسي المولود في مدينة المرّيَّة عام ٦٩٨هـ، وتوفي عام ٧٨٠هـ في البيرة شرق عنتاب على الفرات (٢)، تتنوعُ المظاهرُ الموحيةُ على حضورِ الدّلالة الإيحائية في شعره، التي تشغلها، وهي مظاهر يرفد بعضها بعضاً في بلورة نسيجه النّصي، وسدي منظورهِ في الذّات الفردية، والذّات المجتمعية في أطوارها الزمنية، وصولاً وانتهاءً بالذّات الإنسانية. ويمثّل الإيحاء:" عنصرًا مولدًا مشعًا قادرًا على خلق سلسة أخرى لامتناهية من الرموز، والثيمات، والصور والتجريدات الذهنية والحسية على مستوى شكل الخطاب الشعري"(٣).

واستخدم ابن جابر الأندلسي الرّمز الإيحائي في شعره بوصفه أسلوبًا إبداعيًا جماليًا، يملك طاقات موحية هائلة، تمنح تجربته رصيداً هائلاً من الثراء الأدبي في

---

١) إحسان عباس، فن الشعر، ط ١، بيروت: دار صادر، ١٩٩٦م،٣.

٢) الزركلي: خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١٦، ٢٠٠٥م، ٣٢٨.

٣) فاضل ثامر، بحث الرمز الأسطوري والأقناع في الشعر العربي الحديث، مهرجان جرش الثالث عشر، ط١، بيـروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٥م، ٧٧.

مستويات متنوعة في نصه الشعري، ومدى حضورها فيه، أولها: ذات الشاعر ورمزيتها، وثانيها: الذَات المجتمعية، وثالثها: الذات الإنسانية وأبعادها الأفقية؛ التي تمنح النّص مساحة حضور مهم، يشغلها لإيحاء رؤية ودلالة، وبلاغة في تجربته الشعرية.

وهو الإيحاء الذي رغب فيه الشاعر ابن جابر إلى إظهار الحقائق والدّلالات في نصه الشعري، التي لا يمكن قولها مباشرة للمتلقي إلا تلميحاً ورمزًا.

أولاً: إيحاء ذات الشاعر ورمزيتها

سمح استقراء شعر ابن جابر الأندلسي حضور ذاتية الشّاعر في الكثير من النّصوص الشّعرية؛ ما دلَّ على ارتكاز ذات شاعرنا وتواجدها في حبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته رضوان الله عليهم، والحنين إلى بلده ومسقط رأسه المريَّة، والمحبوب وصفاته، التي أسرت لبَّه وتفكيره.

وجاء شوقه ومحبته لصحابة رسول صلى الله عليه وسلم، من ذلك قوله في مدح رسول الله–صلى الله عليه وسلم–:

حبيبٌ لربِّ العالمين فَحُبّهُ يُخالِطُ منّا العَظْمَ واللَّحْمَ والعِرْقَا[1]

يُبيَّن ابنُ جابر مخالطة محبة رسول –صلى الله عليه وسلم–قلوب مُحبيه، فحبه –عليه السّلام–بلَغَ العظم؛ ممَّا يشي أنّها وصلت صميم النّفس، ولكنَّ الشّاعر يأبى إلاّ أنْ يؤكد شموليتها في أنّها خالطت العظم، واللحم، والعروق، وهي كلها من أجزاء الجسم المتلاحمة، رامزة وموحية على مكانة رسولنا الكريم في قلب شاعرنا والمسلمين أجمعين.

ومن ذلك قوله في مدح رسولنا عليه السَّلام:

يرنُو بطرْف فاتر، مهمَا رنَا فَهو المُنى، لا أنتهى عن حُبهِ
يَهْفُو بِغُصْنٍ نَاضِرٍ، حلْو الجَنى يَشْفِي الضّنَى، لا صَبْر لي عَنْ قُرْبِهِ
لَوْ كَانَ يَوْمَاً زَائري، زَالَ العَنَا يَحْلُو لَنَا، في الحُبِّ أنْ نُسْمَى بِهِ
أَنْزَلْتُهُ في نَاظِري لمّاْ دَنَا قَدْ سَرّنَا إذْ لَمْ يَحُلْ عَنْ صَبِّهِ[2]

تمثلت ذات ابن جابر في صور حبه وشوقه لزيارة مسجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم—تنوعت وتعددت صورها، مما أسهمت في خطابها الرمزي والإيحائي، تغري المتلقي باكتشاف مضامينها الإيحائية، وصورها المتنوعة، لتشكل لوحة من الجماليات ، التي تمنح النص فضاءات جديدة، وجاءت الأبيات من الرجز التَّام، وإنْ تركتْ كما هي، ولو حذف من القصيدة الربع الأخير أصبحت من الرجز المجزوء، وإنْ حذف الشطر الثاني كله صارت من مشطور الرجز، ولو بقي من القصيدة الربع الأول فقط أصبحت من منهوك الرجز، وهذا من غير أن يتأثر

---

١) شعر ابن جابر، ص٩٩.

٢) المرجع نفسه، ص٢٦–٢٧.

المعنى[١]، وهي أبيات تبيّن براعة الشاعر ابن جابر في نظمها، ورصفها، إذ بنيت على روايات عدة، ومعانيها متناسقة في حال الإبقاء والحذف، وإنْ جاء فيها شيء من التكلّف، وهذا التنوع في الرّوايات أعطاها تلويناً موسيقيًا لافتًا يشدُّ المتلقي.

ومن ذلك قول ابن جابر في أبيات توحي إلى محبة الرسول صلى الله عليه وسلم:

نـــاديتُ من أَسْـــري به بحيـــاة من أُســـري بهِ
ســـل مـــدمعاً تجـــري به بلـــــواه في تجـــريبهِ[٢]

نجد في هذين البيتين ما يشبه السَّجع في قالب التصريع والجناس ضمن الجزء الأخير من حشو وعجز البيتين، (فأسري) الأولى ترمز إلى شدة ولعه بالمحبوب عليه أفضل الصلوات و(أُسري به) أيّ النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، و (تجري به) هنا توحي إلى الدُّموع، التي تسير في مجرى معين من شدة الحب والوجد، و (تجريبه) ترمز إلى شدة معاناته في تجربته مع محبوبه، وصدّه، وردّه.

ونجد له من فن التطريز أبياتاً متوالية فيها:

للسير مبتدرٍ كالسّيل محتفـــرٍ كالطيْـــرِ مُشتَملٍ بالليـــل ملتثمِ
قصـــداً لمـــرتقبٍ لله منتصرٍ في الحق مجتهدٍ للرسل مختتمِ
من لي بمستسلمٍ للبيد معتصمٍ بالعيس لا مسئمٍ يوماً ولا ســـئم
للبَـــر مقتحـــمٍ للبـــرِّ ملتزمٍ للقـــرب مغتنـــمٍ للترب ملتثم[٣]

فالكلمات:(مرتقب–منتصر–مجتهد–مختتم–مبتدر–محتضر–مـــشتمل–ملتـــثم–معتصم–مقتحم–ملتزم–مغتنم–ملتثم) كلها على وزن واحد وهو صيغة اسم الفاعل مـــن فوق الثلاثي، وقد تناثرت ضمن أبيات أربعة متوالية، وشكلت تصريعاً، وتطريزاً بـــآنٍ معاً، إضافة إلى وجود كلمات متجانسة (البَر–البِر)، و(ملتـــثم–ملتـــثم) وهمـــا كلمتـــان متجانستان جناساً تاماً،

١) انظر: الحموي، تقي الدين علي بن عبد الله، خزانـــة الأدب وغايـــة الأرب، ت: عـــصام شـــعيتو، ج٢، دار ومكتبـــة الهلال،١٩٨٧م، ط١، ٢٨٦.

٢) شعر ابن جابر، ص٢٦.

٣) المصدر نفسه، ص١٣٧.

والأبيات توحي فضائل وخصال الرسول عليه السَّلام، وتروم كلها فعل جميعها إلى أنه عليه السلام يروم رضى الله المرتقب، وهو خاتم الرسل عليهم السلام.

وتُعدُّ خاصية الشعور الذاتي في الخطاب الشعري من أبرز خصائص الشاعر ولغته، وهي التي تشكل عوالمه الإبداعية، وتمثل الذاتية محور النّص ومداه ومداره، وهذا يسمح للتجربة الشعرية عند الشاعر، أن تظهر للمتلقي وتبين تجربته الحياتية.

دارٌ شـفيع الـورى فيها لمعتصم جـارٌ رفيـع الـذرا ناهٍ لمجترمِ
فهجر ربعي لذاك الـربع مغتنمي ونثر جمعي لذاك الجمع معتصمي
وميل سمعي لنيل القرب من شيمي وسـيل دمعي بذيل الترب كالدّيمِ[1]

وقوله أيضاً عندما يصف المحبوبة في مقطوعات متلاحقة:

رفعَ الخصرَ فوقَ منصُوبِ ردْفٍ ولجزمِ القـلوبِ فـرعيهِ جَـرّا
مالَ غُصناً، رَنا رشأً، فاحَ مِسكاً تاه دُرّاً، أرضى دجى، لاح بدرا[2]

تجلت في الأبيات السابقة والتالية صورة عاشق في نصه الشعري، كاشفاً عن شفافية في قلب الشاعر، ورقة إحساس، وجمال وصف (الخصر، ردف، القلوب، مال، رنا، فاح، درا، لاح) نقل صفات تظهر في واقع ذاتي معايش، لعالم شعري إيحائي متخيل. وقد أظهر لنا براعته في استخدام أدوات نحوية: (رفع–نصب–جر–جزم)، إضافة إلى وصف الحركة الدقيق.

وقوله أيضاً:

فـوقَ خـدّيهِ للعـذارِ طَـريقٌ قدْ بَـدا تحتَه بيـاضٌ وحمُـرة
قِيلَ ماذا فقـلتُ أشـكالَ حُسنٍ تقتضي أنْ أبيـع قلبي بنظـرة [3]

وقوله أيضاً:

في خـدِّها شَـبهٌ للخـالِ أو شـيَهٌ بما حوى الحُسْنُ منْ ألطَافِ أسْرَارِ
وشْيٌ منْ الحُسْـنِ لمْ يحْتَجْ لِصُنْعِ يَدٍ تَبـَارَكَ اللهُ هذي صَنْعةُ البَـارِي [4]

---

١) شعر ابن جابر ص١٣٧.
٢) المصدر نفسه، ص٩٠.
٣) المصدر نفسه، ص٩٠.
٤) المصدر نفسه، ص٩٠.

استعمل الشاعر الألوانَ في وصفه من مثل:(دجى-بياض-حمرة)، ووصف الحركة والنظرة بدقة وصفة، من مثل قوله:(مال-رنا-تاه-أرخى-لاح-...)، وكانت أوصافًا مبدعة دقيقة، وصف جمال محبوبته، كأنها أمامه، ويرى أوصافها ربما أكثر من المبصرين، كما دقق الشاعر في وصف الخال، الذي في خدٍّ محبوبته، إلى حد كأنه يراه؛ لا يصفه سماعاً أو خيالاً.

وكانت قدرة وذاكرة الشاعر الشعرية هي التي جعلته يوظَّف نصَّه في إيراد هذه الصور والتراكيب الوصفية، أو خياله، أو حبَّه القوي في إظهار براعته هو الذي يدفعه إلى إيراد مثل هذه الأوصاف الدقيقة، والألوان المتنوعة، وتوظيفه الرمزي المتقن.

كان شعر ابن جابر يجيد فن التشبيه والوصف الرائع المبدع، ويتكئ على دلالاته الإيحائية التي يستشفها من خياله المبدع، من ذلك ما قاله في تشبيه انَّ محبوبته حينما تضحك، فإنَّ جيدها يهدي لثغرها من عقده جواهراً. إذ يقول:

ضحكت فقلــت كأنّ جيــدك قد يهدي لثغرك من جواهر عقده

وكــأن ورد الخــدّ منك بمائه قد شاب عذب لماكِ حالةَ ورده [1]

وألمحَ البيتان معاني جميلة، ومتناسقة، وصور فيهما دقيقة، لم نشعر فيها بتكلّف، بل بإبداع حقيقي لها، فالجيد يهدي فم المحبوبة من جواهر عقده عندما تضحك، وهذا لشدة بياض أسنانها، وجمال ضحكتها، وخدها المتورد اللون قد لون شفتيها بلونه، ولونه المتورد ناتج عن الحياء الذي يصيب المحبوبة عندما ترى محبوبها، قوله أيضاً:

عِيبْتْ عِدَاهُم فَزانُوهُم بأنْ تركــوا سُــيُوفَهم وهْي تِيجَانٌ لهــامِهِمُ

تَجْرِي دِمَاءُ الأعادي مِنْ سُيُوْفِهِم مِثْلُ المواهِبِ تَجْرِي مِنْ أَكُفِهِم [2]

فالأعداء فيهم عيوب كثيرة، أراد قوم الشاعر أن يغيروا هذه العيوب إلى محاسن، فتركوهم قتلى قد وضعت سيوفهم على رؤوسهم وهم أموات، وهذه كناية عن كثرة من قتل منهم، كذلك جرت دماء الأعادي من سيوف قوم الشاعر مثل المياه التي تجري من أكفهم، وهذه كناية أيضاً على كثرة القتل من الفريق الثاني.

---

١) شعر ابن جابر، ص٦٧.

٢) المصدر نفسه، ص١٤٤.

أشار ابن جابر الأندلسي في أبيات له إلى عبد الله بن عباس حبر الأمة –رضي الله عنهما–وفضائله، ويشير ابن جابر إلى سورتي النصر والفجر في قوله:

فَجاءَ مُجيبًا في (إذا جاء) بالذي شَفَاهم فقالوا حَقَّهُ أنْ يُسوَّدِ

فآيتُها مِنْ آخرِ الفجرِ أُسمِعوا لدَى وضعِهِ في خَيرِ قبْرٍ ومَلحَدِ (١)

وقد رمز ابن جابر في شعره (العروة الوثقى) بالدين حينما يستمسك به المسلم، وشبه ذلك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية"(٢)، قوله:

هي العروةُ الوثقى فإن ْ كُنْتَ طَالبًا نجاتَكَ فَاستَمْسِكْ بِعُروتِها الوُثقى (٣)

ومن قول ابن جابر الموحي بأحوال الناس يوم القيامة، وأهوالها، والمرتبطة بما يقدمه العبد من أعمال في الدنيا، فالصالح منها هو من يجعل وجوه الناس بيضاء، والعمل الطالح من يجعل الوجوه تسود، وفي قوله:(بجاهك تبيض) ترمز أن هناك وجوه بسبب جاه الرسول–صلى الله عليه وسلم–تبيض، حيث يقول:

بِجاهكَ تبيضُّ الوجوهُ بشارةً إذا غيرَّ وجه المنثني عنك واسودَّا (٤)

وهذا يدلُّ على تجربة الشاعر ابن جابر وتنوع صورها؛ مما أسهمت في اكتناز صورها الإيحائية والرمزية؛ لأن النص الشعري خطاب إيحائي، ينداح عن المباشرة في التعبير إلى الرمزية والإيحاء، ومن الوضوح إلى دلالات مغرية للمتلقي بالبحث والاكتشاف والمتعة، تكسب النص خصوصية وتفرد، وتمنحه علاقات جديدة غير متوقعة.

والحياة تبعث السعادة للفرد والمجتمع حينما يتعلقان بهدي نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم–وبالصحابة –رضوان الله عليهم–فهم خيرة البشر مع خير البشر، فهم خير القرون، وكما قال عنهم عليه السلام:" أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم...أو كما قال.

---

١) شعر ابن جابر، ص٦٢.

٢) أبو الفداء، إسماعيل بن عمر، تفسير ابن كثير، ت: سامي محمد سلامة، دار طيبة، ١٩٩٩م، المجلد ١.

٣) شعر ابن جابر، ص٩٩.

٤) المصدر نفسه، ص٤١.

فنجد ذلك فيما أشار إليه ابن جابر في قوله:

بهدي النَّبي الهاشمي محمـــــد وبالعشرةِ الأخيارِ منْ بعده اقتدِ

فهم نصحوا كلَّ العبادِ وما ونوا وهم أوضحوا سُبلَ الرَّشادِ لمهتدي (١)

إنَّ إيحائية الشوق والحنين في ذات الشاعر، تتعالق مع الذات المكانية لبلدته المريَّة، أو مكة المكرمة، أو المدينة المنورة؛ وذلك بسبب العلاقة الجدلية الدائمة بينهم؛ فيجعل الشعر حديثه مع ذاته الشاعرة، وما تنطوي عليه من إيحاءات، يتعالق مع الذات المكانية والعكس صحيح في صور تتجلى في نصه عقدية، وأخلاقية، وسلوكية، واجتماعية، من مثل قوله:

يَا سائقَ الأظْعَانِ شأنَكَ والسُّرى واطْوِ المَنَاهلَ مُسْحِرًا أو مُدْلجَا

وارْفِقْ بِنا فَالشَّوقَ منَّا قَدْ يَرَى مُهَجًا وَقَدْ شَكَتْ المطِيُّ منْ الوَجَا

دعْهَا فإنَّ الشَّوقَ يجدبهُا إلى تلك الدِّيارِ وإنْ يَكُنْ لَيْلٌ سَجَا (٢)

كل ذلك يسهم في بيان مشاعر الركب ولهفتهم وشوقهم وحنينهم الذي بلغ بيهم كل مبلغ، وأن كان المسير في آخر الليل أو سحراً، فدعها تواصل المسير فلا تثريب.

قدْ زعمَ العاذلُ لي أنَّهُ يُهدِي لي الرشدَ بما يَصنعُ

ما هوَ هادٍ لي ولَكنَّه هاذٍ فَسْمَعِي قال: لا تسمعوا (٣)

النصح سمة دالَّة على إنسانية الذات وحبها الخير؛ وهي تكشف عن العلاقات العضوية بين الأفراد، وتكسب قبولها ورفضها من المتلقي، فكلما خلُصت النية وجدت القبول. فقد ألمح ابن جابر بقوله:(لا تسمعوا) فيه نصيحة غير مقبولة في نفس المتلقي، ولا فائدة منها.

إنَّ رمزية الكلمات التي يُعبِّر عنها الشاعر في أبيات القصيدة الشعرية عند ابن جابر، تنطلق من منظوره الروحاني الذاتي، الذي ينتج عن قيم أخلاقية يصدر من تعاليم الدين الحنيف، وحبه النصح والإرشاد، والدعوة لفضائل الأخلاق من ذلك، قوله:

إذَاْ شِئْتَ رِزْقَاً بِلاَ حِسبَةٍ فَلْذْ بِالتَّقِي وَاتَّبِعْ سُبْلَهُ

وَتَصْدِيْقُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ وَمَنْ يَتْقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ(١)

---

١) المصدر نفسه، ص٤٣.

٢) شعر ابن جابر، ص٣١.

٣) المصدر نفسه، ص ٩٣.

ففيها دعوة إلى العمل الإيماني عبر بوابة التقوى، وهي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، باتباع المعروف والإحسان إلى النفس والناس، واجتناب النواهي، وكل مدنس.

إنَّ في الرموز المفردة الجزئية، التي تكون في سياقات إيحائية بمداليل جزئية، ترتبط بالتجارب الحياتية الشعورية لدى الشاعر، والتي يسعى إبلاغها للمتلقي، حيث يَعْمَدُ في تشكُّل مثل هذه الرموز في عباراته، التي يغذيها السياق بالمداليل الرمزية الجديدة، التي تمنح النَّص ثراءً وغنىً، عبر مدلولها الوضعي المعتاد إلى آفاق أرحب وأوسع من الكلام المألوف العادي [٢].

وتُعَدُّ الدلالة الإيحائية خلاصة رؤية الشاعر الذاتية للآخر، والأشياء المحدودة لعوالمه الذاتية والجماعية باستعمال فيه انزياح، وقد استعمل دارسون هذه الكلمات رموزاً" كون الكلمات علامات تنزاح بالاستعمال عن المدلول الذي وضعت له" [٣].

ثانيًا: الذَّات المجتمعية:

شكّلت الذّات المجتمعية الإسلامية علامة فارقة في نفس ابن جابر، وفي كل علائقه المجتمعية من خلال منظومة عقائدية، وأخلاقية، وتعبدية، المح لها في طيات نصوصه الشعرية، ورمز لها، سواء كان في المجتمع الأندلسي أو المجتمع المشرقي في مكة المكرمة، أو المشاعر المقدسة أثناء الحج أو العمرة، أو المدينة المنورة، أو قيمة أخلاقية للمجتمع، الذي يُنسب إليه ابن جابر وآمن بمنظومته العقدية، والأخلاقية والتعبدية، ومما أشار إليه القرآن الكريم، وما فيه من إعجاز وبيان، وغيره من المعجزات التي جاءت في نصه الشعري، من مثل قوله:

أليسَ منْ القــرآن جــاء بمعجزٍ لكــل مجيدٍ في البــلاغة مجــزلِ
أليسَ انشقاقُ البــدر كان لأجــله فشــقّ على نفس الشــقي المذللِ
أليسَ الَّذي آلــَم الجـــذع فقــده فــأنَّ أنيـــن الشّــيق المتمــلّلِ
أليسَ ببابِ الغَــار حــامت حمامة لتصــرفهم عن قصــده بالتخــيلِ

---

١) المصدر نفسه، ص ١١٤.

٢) شعبان عبد الحكيم محمد، دلالة الرمز في إبداع معين بسيسو، رسالة ماجستير، كلية الآداب المنيا،١٩٩٥م، ص١٧١.

٣) العيد يمنى، في القول الشعري، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٧م، ص١١.

أليسَ له الحوضُ الذي نأمن الظمأ إذا ما شربنا منه جرعة سلسل [1]

فجاء استفهام مكرر بصيغة (أليس)، أضفى على الأبيات صبغة معينة تجعل القارئ يستزيد من طلب معرفة شمائل ومعجزات هذا النبي عليه الصلاة والسلام، إضافة إلى الصبغة الصوتية التي كانت تتكرر في بداية هذه الأبيات المتوالية، وصفات دالة على بعض معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم من مثل معجزة:(نزول القرآن الكريم المعجز في لفظه ونطقه، ومعجزة انشقاق القمر توحي بما طلبه المشركين من معجزات لكي يثبت نبوءته عليه السلام، وأشار للجذع الذي حنَّ له عليه السلام حينما أتخذ المنبر عوضاً عنه، كما ألمحت الأبيات إلى هجرته وجلوسه في غار ثور، فجاءت الحمامة ووضعت بيضها على فم الغار لتصرف الكفار عن بحثهم عنه عليه السلام، وصاحبه رضي الله عنه، وكما أشارت ورمزت الأبيات إلى حوضه، الذي من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، ليتم توظيف كل تلك الإيحاءات والرمزيات في خدمة تجربة الشاعر الإبداعية.

ومما جاء في الإيحاء المجتمعي ما ذكره في شعره عن الأنصار وما امتازوا فيه –رضوان الله عليهم–من صفات كريمة حسنة، وذكر الدار المدينة ومنازلهم التي منحوها للمهاجرين حينما آخى الرسول –صلى الله عليه وسلم–بينهم، فيرمز إلى ذلك ابن جابر بقوله:

وسَاعدَتْهم مِنْ الأنصَارِ طَائفةٌ بِهِمْ غَدا الشِّركُ قُدمًا وهو مَخْذُولُ

تَبوَّؤوا الدَّارَ والإيمانَ واجتهدُوا أنْ لا يكونَ لـدينِ اللهِ تبـديلُ [2]

كما يُشير قول ابن جابر ويرمز إلى صحابة رسولنا الكريم، بأَّهم كالنجومِ يهتدي بهم الساري في الليل، ويهتدي ويقتدي بهم الكافر فيسلم ويؤمن لما أتصفوا به من صفات الصلاح والفلاح قولاً وسلوكاً، يقول:

وقالَ رسُولُ اللهِ فيهمْ مُمثَّلاً لهُمْ بالنَّجُومِ الزُّهرِ هَدي لِمُقْتَدي

ألا إنَّ أصحابي نُجُومٌ من اقتدَى بِهِمْ في سبيلِ العلمِ والحِلْمِ يّهتدِي [3]

---

١) شعر ابن جابر، ص١١٨–١١٩.

٢) شعر ابن جابر، ص١١٠.

٣) المصدر نفسه، ص٤٩.

ولقد أشار ابن جابر في شعره إلى المهاجرين، الذين هاجروا بدينهم وتركوا المال والدار، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فقد تركوا مكة المكرمة فراراً بدينهم والدينهم، فقال ابن جابر في ذلك:

قومٌ إذا قِيل: من؟ قالوا: نبيَّكُمُ منَّ فهلْ هذه تُلفى لغيرهمِ

إن تقرأ النَّحل تُنحِل جِسمَ حاسدِهم وفي بَراءة يبدو وجهُ جاههمِ (١)

ويُستشفُ من قول ابن جابر الشعري، ذكره لمكة المكرمة، وما تمتلكه من مقومات الجلال والجمال، والتقديس والغفران، وفيها عاش –صلى الله عليه وسلم–بين الجود والنجود بأم القرى، ومن تشرف بخدمة وسدانة البيت العتيق، والسقاية، من مثل قوله:

بهمْ عاشَ في أُم القرى كُلُّ هالك وهمْ أوقدوا نارَ القِرى لِمن استهدى (٢)

وفي أبيات لاحقة جسد ابن جابر في لفظة (أم القرى) المشاعر المقدسة، التي فيها أعمال الحج، قصدهم الحج والتوحيد، وهي مشاعر لتلك المشاعر المقدسة، التي يحنُّ لها كل مسلم من كل فجٍّ عميق، بقوله:

رحلنا إلى أمِّ القُرى نعملُ السّرى عسى سورةُ الإخلاصِ في حَجِنا تقرأ (٣)

وتمثل رمزية المكان الكيان الاجتماعي، الذي يحوي علائق بين الأفراد ومجتمعه، بل يتجاوز كل تلك الحدود الطبيعية والجغرافية، إلى ما هو أبعد من ذلك" نظام من العلاقات الردة، يستخرج من الأشياء الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني"(٤)، وهي إيحاءات تحققت من رمزية المكان، وما تعالقت بها من إيحاءات نفسية، تداعت بمجرد قراءة النص، من مثل، قول ابن جابر:

به شرَّف الله الأباطح من منىً ومكةَ واستدعى إلى قصدها الضُّمرا

وأمَّن يوم الفيل خيفةَ أهلِهَا وردَّ بخُسرٍ من أراد بها شَرَّا

ولولاه لم يجعلْ بمكةَ بيتهَ وأجرى بها منْ ماءِ زمزمَ ما أجرى

فَبكَّت رِقاب المشركين فسُمِّيتْ ببكة لمَّا أهلكتْ منْ نَوى مكْرَا(٥)

---

١) المصدر نفسه، ص١٤٥.

٢) المصدر نفسه، ص٣٨.

٣) شعر ابن جابر، ص٧٩.

٤) اعتدال، عثمان، إضاءة النص، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٨م،٩٧.

٥) شعر ابن جابر، ص٨٤.

كلمات موحية بقدسية الأماكن في نفسية الشاعر، وارتباطها بحياة الشاعر (شرَّف الله الأباطح، منىً، ومكةَ، يوم الفيل، بمكةَ بيتهَ، ماءِ زمزمَ، ببكة) وهي أماكن حظيت بمكانة عند الله حينما اختارها مكاناً لموضع بيته المحرم، وعند رسوله حينما ولد فيها وعاش زهرة حياته في جنباتها، وبجوار بيته المعظم، وتدفق ماء زمزم عبر التاريخ ماءً لا ينضب ولا يخرب.

وأشار إلى قصة أبرهة، الذي سار بجيش لهدم الكعبة، فكبته الله، وأصبحت مكة آمنة.

يُعَدُّ المجتمع الإسلامي في كل مجالاته منظومة إسلامية متكاملة عقدية، وتعبدية، وأخلاقية، فردية ومجتمعية، وقد أشار ابن جابر إلى كل تلك المنظومة القيمية الإسلامية والمجتمعية، وتعالق معها إيمانًا، وأداءً، وتمثلاً قولاً وفعلاً، ووسمت نصه بامتياز بالدلالة الإيحائية الشفيفة منها خاصة، التي تستجيب للمتلقي بكل بساطة وبيان وتأثر وجمال.

ثالثًا: الذَّات الإنسانية

إنْ أظهرت الذات الفردية إيحاءات ابن جابر الأندلسي، وحددت الذات المجتمعية مساره، فقد حددتْ الذات الإنسانية مداه، هي سمة للنتاج الدبي الخالد، الذي هو ذاتي المنطلق، مجتمعي الهدف، إنساني الغاية، كل ذلك يشكل تجربة ابن جابر الأندلسي في كل حالات تعالقه الديني منه والدنيوي، السلوكي منه والأخلاقي، هي تقطبات يقوم عليها كيان الإنسان، وفلسفة وجوده، هي الخبرات الواردة في نصوصه الشعرية، الموسومة بطاقات إيحائية، رامزة عن حاله ذاتية المنطلق، جماعية المدار، إنسانية المدى. ونمثل لها بقول الشاعر.

جمالُ هذا الغزال سحرٌ ياحبـــذا ذلك الجمـــالُ
هـــلال خدّيه لم يغيَّبْ عنّي وإن غُيِّـــب الهـــلالُ
غزالُ أنس يصيد أُسداً فاعجب لما يصنعُ الغزالُ
دلالـــهُ دلّ كلَّ شـــوقٍ علـــيّ إذ زانـــه الـــدّلالُ
كمالُه لايخـــافُ نقصاً دامَ لـــه الحســـنُ والكمالُ
نبالُه قد رمـــت فؤادي ياحبـــذا تلكـــمُ النبـــالُ
حلال وصلي له حرامٌ وحكـــم قتـــلي له حـــلالُ

زلالُ ذاك الحمى حياتي وأيــن لي ذلك الــزلالُ
قتــاله لايــطاق لكنْ يعجبنــي ذلــك القــتالُ[١]

تكتنز أبيات القصيدة كلها على رد العجز على الصدر، وكل كلمة في أول كل بيت تكررت نفسها في آخره، وهذا يدل على براعة الشاعر، ولكننا كنا نشعر بتكلفه في استحضار هذه الألفاظ المكررة، وسطحية معانيه، إضافة إلى أن هذه الأبيات لم تخل من أنواع بديعية أخرى في أثنائها. ويمكن أن تعلل كثرة انتشار هذه الأنواع البديعية وشيوعها إلى الرغبة في مجاراة المبصرين من عصره، فهو لا يريد أن يقلّ عنهم في شيء مادام يمتلك الموهبة الشعرية، لأن الصنعة صارت في عصره "الهواء الذي كان يتنفسه الأدباء بعامة، إذ دخلت أساليبهم مع الحروف والألفاظ بل قبلها، وغدا الشعر صناعة لفظية بعد أن كان قريحة فطرية؛ لأن الشعراء قد أفرطوا في تحميل شعرهم بألوان البديع، وأصباغ المحسنات، وكان حظ المعنى عندهم دون حظ اللفظ، وعدوا ذلك مجال مهارة ولباقة، وكثير من الباحثين يسمي الشعر في هذا العصر شعر الألفاظ والزينة، كما يسمى العصر: عصر البديع أيضاً"[٢].

حاول الشاعر مجاراة المبصرين من خلال تدقيقه في بعض الأوصاف، مستخدماً الألوان المتنوعة في وصفه، وذلك في مثل قوله:

تشتكي الصفر من يديه وترضى الســ ــمر عن راحتيه عند الحــروب
أحمر السيف أخضر السيب حيث الــ أرض غبراء من سواد الخطوب [٣]

تمثل الألوان عاملاً مؤثرًا في شعر ابن جابر الأندلسي، فاللون له أثره النفسي، وبعده الإيحائي عند المتلقي والأديب، وبحكم السياق في البناء الشعري وكيفية استخدام الشاعر الدلالة اللونية، لا يمكن عزلها عن سياقها الشعري، ودلالة اللون في شعر ابن جبر له رمزيته وإيحائيته، وهو عالم مبدع يحتاج مزيد إطلاع، بحكم خصوصيته وغايته.إنَّ استخدم الشاعر للكنايات الكثيرة في وصفه للممدوح، فالدنانير الصفراء تشتكي من يديه فيطلقها عطايا، والرماح السمر ترضى عن بلائه في الحروب، وهو أحمر السيف لكثرة من يقتل في الحرب، كريم معطاء عندما تجدب الأرض، ويقل

١) شعر ابن جابر، ص١١١-١١٢.
٢) الهيب، أحمد فوزي، الحركة الشعرية في زمن المماليك في حلب الشهباء، ص٣٩٤.
٣) شعر ابن جابر، ص٢٨.

خيرها، فالألوان هنا (الصفر–السمر–أحمر–أخضر–غبراء–سواد) ألوان زين بها صوره، محاولاً مجاراة غيره، وكأنه يرى هذه الألوان، ويصفها بدقة، أو ربما حفظ هذه الكنايات عن غيره حفظاً؛ فضمنها شعره.

مثّلت حادثة الإسراء والمعراج أية وعجزة عظيمة من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ثم إلى السماء السابعة بصحبة جبريل –عليه السلام–وحيث فرضت على المسلمين الصلاة وفي ذلك إيحاء بأهميتها، ومكانة الرسول –صلى الله عليه وسلم–من ربي العزة والجلال، وشوق المسلمين للسلام على رسولنا الكريم، بمثل قوله:

لقد علموا أنَّ البُراقَ سما بِهِ فأضْحى إلى أعلى السمواتِ يعتلي
فَنُوديَ أنَّا قدْ أردْناك فاقتربْ لك الجاهُ منَّا والقبولُ فأقبلِ
رأى الأيةَ الكُبرى فثبته فلمْ يزغْ بصرٌ عن رؤيةِ الحقِّ إذ جُلي
فحلَّ مقاماً لمْ يقمْ فيهِ غيرُه لقدْ جلَّ فافهمْ سرَّ مغناهُ واعقلِ[1]

وتوحي عبارة ابن جابر (فلم يزغ بصر) أنه لم ينظر إلا لما أُمر بالنظر له، وهذا يرمز إلى اتباع رسولنا –عليه السلام–لأوامر الحق سبحانه وتعالى، ومعجزة أوضحت مدى مكانة رسولنا الكريم عند الله، حينما أُسري به وهو أمر لم يسبقه نبيي.

ومن الصفات التي نفَّر منها ابن جابر حبَّ المال والرغبة في الدنيا، والسعي وراءها، فأمست غايتهم ومطلبهم الأول، حيث بيَّن حقيقة الدنيا وطالبيها بقوله:

يَعُدُّون من عزّ النفوسِ اكتسابها وما هو إلا ذلةٌ وتبابُ
وما مَثلُ الدُّنيا وطلابِ مثلهـا سوى جِيفٍ منْ حولَهُنَّ كلابُ [2]

نجد في النَّص السابق صفة حب الإنسان للدنيا والركون لها من مثل قوله:(سوى جيف من حولهن كلاب) دالة على مدى حقارة من يجعل الدنيا نصب عينيه، وهي صورة توحي بقبح من طلب الدنيا ومتاعها الزائل، فقد وفق ابن جابر في الرمز والإشارة في ذلك.

ومن جميل إيحاءات ابن جابر قوله:

يا صاحبَ المالِ ألمْ تَسْتَمعْ لِقَوْلِهِ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ
فاعملْ به خيرًا فو الله ما يبقى ولا أنت به مُخْلِدُ

---

١) شعر ابن جابر، ص١١٩.

٢) المصدر نفسه، ص١٩.

حيث وظَّف عبارة (ما عندكم ينفد) التي توحي بأنَّ المال ينقضي وينفد، ويدعو فيه ابن جابر صاحب المال بالإنفاق منه؛ لأنه لت يبقى المال، وأنا صاحبه لن يخلد على هذه الَّدنيا، فبالإنفاق ينتفع صاحبه في الدنيا والآخرة.

وتتعالق الدلالة الإيحائي لشعر ابن جابر الأندلسي مع مستوياتها الذاتية والمجتمعية والإنسانية، وتسهم معاً في تشكيل خطابها، ولغتها، وبيانها؛ لانفتاحها مع ذات الشاعر، والذات المجتمعية، والذات الإنسانية، تركيبًا ودلالة؛ مما أدت إلى إنماء هذه الُبنى إيحائياً وتنوعها جماليًا ودلاليًا.

الخاتمة:

تمثلت الدلالة الإيحائية في شعر ابن جابر الأندلسي في مستويات ثلاثة، أولها: مستوى الذات الشاعرة ورمزيتها، كان مدارها ذات الشاعر في حياته في الأندلس أو بعد ارتحاله إلى المشرق الإسلامي حتى وفاته، بحفظه القرآن الكريم، ودراية بالحديث الشريف، والعلوم الإسلامية المختلفة، وتعالقه مع كل ما هو إسلامي، صور ذات يتعالق بعضها مع بعض، تجسد صور ابن جابر اشاعر الإنسان المسلم.

والمستوى الثاني: فجاء مجسداً لذات المجتمعية، تعالقها مع ذات الشاعر في قيمها المجتمعية، وسلوكياته، وأخلاقه، ثم المجتمع المسلم، وما فيه من قيم إسلامية عظيمة، ناساً ومكانا، وهذا ما جعل القول الشعري لابن جابر الأندلسي في مختلف صوره، هو ذلك القول المشتق من الكيان؛ ليعبِّر عن الوجود في صوره المتعدّدة ذاتاً، ومجتمعاً، وإنساناً.

وأمَّا ثالثها: الذَّات الإنسانية والذات الشاعرة؛ دالة على أهمية الدلالة الإيحائية في التجربة الإنسانية، وهو ما رام إليه ابن جابر في نصه الشعري، وهي دلالات ومعانٍ لا يمكن للأديب التعبير عنها مباشرة للمتلقي، ويروم لها المبدع رمزياً.

النتائج:

- عند ابن جابر الإيحائية ملمح تعبيري لا مناص له في النص الشعري، تقدم رؤية لغوية خاصة عند شاعرنا.
- يتقصد المبدع الإيحائية في نصه الشعري لتقوم بتوجيهات معينة، تحاول النفاذ إلى كنه الأشياء.
- تعكس الإيحائية في النص أوجهاً متنوعة ترمز إلى طريقة في الأداء الأدبي، تعتمد على الإيحاء بالأفكار والمشاعر الخاصة.
- تسهم الإيحائية في رصف رؤى الشاعر على المستوى الذاتي، والمجتمعي، والإنساني.
- تشكل الإيحائية قدرة فنية تدعم النص وترفده جمالياً ودلالياً.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- إحسان: عباس، فن الشعر، ط ١، بيروت: دار صادر، ١٩٩٦م.
- اعتدال: عثمان، إضاءة النص، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٨م.
- الأندلسي: ابن جابر الأندلسي، ت: أحمد فوزي الهيب، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م.
- البغوي: الحسين بن مسعود/ معالم التنزيل، ت: محمد النمر وآخرون، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٢٧هـ.
- الحموي: تقي الدين علي بن عبد الله، خزانة الأدب وغاية الأرب، ت: عصام شعيتو، ج٢، دار ومكتبة الهلال،١٩٨٧م، ط١.
- الزركلي: خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١٦، ٢٠٠٥م.
- شعبان: عبد الحكيم محمد، دلالة الرمز في إبداع معين بسيسو، رسالة ماجستير، كلية الآداب المنيا،١٩٩٥م.
- العيد: يمنى، في القول الشعري، ط١، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ١٩٨٧م.
- الهيب: أحمد فوزي، الحركة الشعرية في زمن المماليك في حلب الشهباء.